WWW.NAFSEISLAM.COM

بلال

مؤذن الرسول

عبد الحميد جوده السحار

مطبوعات مكتبة مصر

بلال رضي الله عنه

مؤذن الرسول

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

نفس إسلام
WWW.NAFSEISLAM.COM

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد

الليل ساج ، والهدوء شامل ، والظلام باسط رداءه الأسود يحجب كل شيء ، وأهل مكة يغطون في نوم هادىء مستقر ، لا تتخلله أحلام مزعجة ولا رؤى مفزعة ، فحياتهم لهو كلها ، عبث كلها ، خمر ونساء ، طرب وغناء ، والدنيا بالنسبة إليهم هي الحياة : لا يعرفون آخرة ولا أولى ، ولا بعثا ولا نشورا : يغترفون في يقظتهم من معين اللذات اغترافا : ويعبون من كأس الشهوات عبا : فإذا ما جن الليل وأووا إلى مضاجعهم ناموا ملء جفونهم كالأنعام أنهكها التعب ، ونال منها النصب .

وتصرم الليل فارتفع صياح الديكة عاليا فهتك غلالة السكون ، وقرع أذن الشمس فهبت من نومها واستوت في مضجعها : فبعثت أشعتها خافتة باهتة ، فتسللت من كوات المنازل تدعو النوام في رفق إلى الاستيقاظ والنهوض لاستقبال النهار ، والتأهب لاستئناف السير في موكب الحياة .

ودبت الحياة فى مكة رويدا ، وانتشر الناس فى أرجائها يبيعون ويشترون ، ويأخذون بأطراف الحديث فى دعة وهدوء ، لا يدور بخلدهم ما تخفيه عنهم الأيام من أحداث جسام ، وما ستشاهده مكة من صراع هائل جبار ما شهدت مثله بقعة من بقاع الأرض ، صراع بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلالة ، صراع يرفع أناسا ويضع آخرين ؛ ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لانقلب هدوؤهم صخبا وسكوتهم صياحا وضجيجا .

وأقبل أمية بن خلف ينهب الأرض بخطواته الواسعة السريعة يتبعه عبد أسود اللون ، طويل نحيل ، خفيف العارضين ، ضامر الوجه ، كثيف الشعر ، فلما أشرف على الكعبة ضيق من خطواته ، وتمهل فى السير ، والتفت إلى عبده وقال :

— إنى لأرجو يا بلال أن يحالفك النجاح كما حالفك فى العام الماضى ، لقد كان نجاحك فى تصريفه تجارتنا حافزا على أن تضع قبيلتنا أموالها فى ركابك . لو فشلت يا بلال .

فلم يدعه بلال يتم مقالته بل قال مقاطعا :

— اطمئن يا مولاى .

— سيتحرك ركب قريش غدا ، وإنى لأرجو يا بلال أن يتم تجهيز قافلتنا اليوم ، حتى لا تتخلف عن الركب .

— سيتم ذلك يا مولاى .

— سيتخلف ولدى على عن هــذه الرحلة ، وستكون وحدك المسئول عن القافلة .

ثم دلفا إلى الكعبـة ، فلمح أميـة بن خلف أشراف قريش فى حلقة يتسامرون ، فالتفت إلى عبده وقال :

— سأنتظرك يا بلال هنالك (وأشار إلى حلقة السمار) إلى أن تنتهى من تقديم قرابيننا إلى هبل ، واستشارته فى أمر رحلتنا .

وانصرف أمية ، ودرج بلال نحو هبل إلههم العظيم ، وكان على صورة إنسان من عقيق أحمر ، ويده من ذهب ، وقدامه سبعة أقداح ، ولمـا بلغه وجد عنده رجلا وامرأة تحمل مولودا ، وكاهن هبل يضرب بالقــداح ، وحولهم خلق كثير ، فعلم أن ثم مولودا مشكوكا فى نسـبه ، وأن والديه يحتكمان إلى الإله ، فوقف مع الواقفين ، وأديرت القداح فكتم الناس أنفاسهم ، واشرأبت أعناقهم ، وظهر القلق والاهتمام على وجهى المرأة والرجـل ، وكانت المرأة أكثر قلقا واضطرابا ، تنتظر حكم الإله فى لهفة ورهبة ، فخرج قــدح مكتوب فيه « صريح » ، فتهللت أســارير المرأة وعــلا وجها البشر ، وضمت المولود إلى صــدرها فرحة ، ثم اقتربت من الرجـل ورنت إليــه بعينين فيهما عتاب ولوم ، وكانت نظرتها إليه أفصح من مقال ، ولكنها لم تكتف بذلك ، بل قالت :

WWW.NAFSEISLAM.COM

ـــ أرأيت ؟ لقد قال الإله قوله الفصل .

ثم انصرف الجمع وبقى بلال ، فتقدم من الكاهن فى خشوع ، وقدم إليه هدية الإله وهو يتمتم :

ـــ تتقدم إلى إلهنا هبل العظيم بقرابيننا المتواضعة ، راجين أن يشملنا بعنايته ، ويكلأنا برحمته ، ويبارك لنا فى سفرنا هذا .

فتناول الكاهن هدية الإله وضرب بالقداح ، وانتظر بلال رد هبل العظيم ، فخرج القدح مشيرا بعدم السفر ، فوقع فى نفس بلال حزن ثقيل ، وغشى وجهه الإظلام وغمغم :

ـــ أيشير بعدم السفر بعد أن جهزنا كل شىء ، وأعددنا العدة للرحيل ؟

ولاحظ الكاهن حزن بلال الشديد ، فقال :

ـــ قدم له قربانا آخر لعله يشفق عليكم ، ويرضى عن سفركم .

ففعل بلال ، وهل كان فى وسعه إلا أن يفعل ؟ ودارت القداح وخرج قدح مكتوب فيه « سافر » ، فسر بلال وفرح ، ولكنه أراد أن يطمئن إلى رضى الرب ، فطلب من الكاهن أن يعيد الكرة ففعل ، ووافق الإله على السفر كما وافق فى المرة السابقة ، فردت نفس بلال إلى طبعها رد الحمام إلى قرابه ، وانقلب إلى أمية مسرورا .

خرج أهل مكة لتوديع القافلة المنطلقة إلى الشـــام تحمل أعز ما يملكون وأحب من يحبون ، تحمل أموالهم وأحباءهم وفلذات أكبادهم . وحانت ساعة الوداع ، وآذن بالرحيـل ، ففصلت العير وانطلقت الإبل فى قطـار طويل لا يبلغ البصر مداه ، واستوى الحـرس على خيولهم كسـيوف مشرعات ، وراحوا يحومون حول القـافلة يتفقدون شئونها ، وكان بلال على رأس قافلة بنى جمح ، وأخـذ الركب يبتعـد رويدا رويدا ، ويختفي عن أعين المودعين شيئا فشيئا ، حتى غاب فى الأفق واحتواه الغيب المجهول .

وانطلقت القافلة ترفعها النجاد وتحطها الوهاد ، وتتابع الليل والنهار ، وتبادل القمر والشمس احتـلال السماء ، حتى بانت لهم أرباض الشـام ، وكان التعب والنصـب والكلال قد نال من الإبل والرجال ، فخفت سرعة الإبل ، وتراخى الرجال فوق رواحلهم ، ولاحظ بلال ذلك فرفع صوته بالغناء فانساب عذبا نديا ، رقيقا حنونا ، انسكب فى آذان القوم فأنعش أفئدتهم ، ومس شـغاف قلوبهم ، وجلجل فأسكرهم بحلو نغماته ، وأنساهم ما هم فيه من تعب ولغو ، فراحوا يتمـايلون ، ويرددون الغنـاء ، فدبت الحياة فى القافلة من جـديد ، ونشطت الإبل فى السـير ، فبلغ الركب الشام مع غروب النهار .

To: www.al-mostafa.com

وأقبل الليل ومد رداءه الأسود على المكان ، واجتمع كبار تجار قريش يتسامرون ، ومر عليهم بلال فدعوه للجلوس بينهم فجلس ، والتفت إليه أبو بكر بن أبى قحافة وقال :

— ما أندى صوتك يا بلال وما أحلاه ، أنسانا تعب الطريق وقصر علينا المسافات .

ودار الحديث بين القوم حتى انقضى من الليل ثلثه ، فانصرف الجميع للهجوع .

وكرت الأيام ، ونفقت تجارة قريش ، وتقابل بلال وأبو بكر ابن ابى قحافة كثيرا ، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة ، وتوثقت عراها ، وفى اليوم الذى تجهزت فيه القافلة للعودة إلى مكة ، لمح بلال أبا بكر يجد فى السير ، فأسرع خلفه ، ولما لحق به سأله :

— إلى أين ؟

— إلى راهب هناك .

— ولم ؟

— أستفسر منه عن تأويل رؤيا رأيتها .

وهمّ بلال بالانصراف ، فقال له أبو بكر : ألا تأتى معى ؟

فوافق بلال ، وانطلقا حتى بلغا صومعة الراهب ، فاستأذنا ودخلا وأخذ أبو بكر يقص على الراهب ما رأى

والراهب مطأطىء البصر ، وبلال مأخــوذ بما يســمع ، وما انتهى أبو بكر من كلامه حتى رفع الراهب رأســـه وقال له :

— من أين أنت ؟

— من مكة .

— من أيها ؟

— من قريش .

— وأى شىء أنت ؟

— تاجر .

— إن صــــدق الله رؤياك فإنه يبعث نبى من قومك تكون وزيره فى حياته وخليفته من بعد مماته .

فسأله بلال : وما النبى ؟

— رسول من عند الله .

فغمغم بلال : رسول من عند الله ؟

فقال الراهب :

— أجل يرسله الله هدى للناس .

فقال بلال : أيرسله هبل أم اللات والعزى ، أم أساف ونائلة ، أم إله آخر من تلك الآلهة الكثيرة بالكعبة ؟

فقال الراهب : يرسله الله خالق السموات فاطر الأرضين . ويأمر ذلك النبى الناس بعبادة الله وحــده لا شريك له ، وبوصل الأرحام وتحطيم الأصنام .

فقال بلال بفزع : أيأمر بتحطيم الآلهة ؟.
فقال الراهب : أجل ليحطمنها جميعا .

***

انتهت رحلة الشام وعادت القافلة إلى مكة ، فخف رجالها إلى الكعبة يطوفون بها قبل عودتهم إلى دورهم واستقبال أهلهم ، واتجهوا جميعا إلى الآلهة الكثيرة فى جوف الكعبة وحولها يشكرونها على ما منحتهم من بركات طوال سفرهم حتى عادوا غانمين . وطاف بلال مع الطائفين ، وتقدم مع الشاكرين ، ولكنه لم يك يشعر بتلك الطمأنينة التى كان يحسها كلما طاف بالبيت ، ولم يك يشعر بذلك الخشوع الذى كان يملأ صدره كلما وقف بين يدى الآلهة ؛ وتمتم بشكره فكان شكرا فاترا لا حماس فيه ، وعهده أنه إذا خاطب الآلهة خاطبها بصوت يتهدج رهبة ، يدل على الإيمان العميق ، فأنكر نفسه ، وحاول أن يرد دعتها وطمأنينتها فلم يفلح ، وأفلت منه زمام أمره ، وراح يتساءل : لم يعبد هذه الآلهة ؟ ولم يكن لها الخشوع والولاء والحب ؟ فالفى نفسه لا يدرى . وراح يتساءل : ما الذى رآه من عظمة هذه الآلهة ، وما الذى لمسه من قدرتها ؟ إنه لم ير شيئا ولم يلمس شيئا ، فلم يعبدها ؟ يعبدها لأنه شب فرأى القوم يعبدونها ، يحبها لأنه شب فالفى القوم يحبونها ، يخضع لها لأنه شب فإذا القوم

يخضعون لها . وهنا تذكر أنه من أصل حبشى ، وأن أبويه قد حملا من الحبشة وبيعا فى مكة . فولد بين آلهتها لا يعرف آلهة غيرها ، فلو أنه ولد بالحبشة لعرف آلهة أخرى ، ولعبدها ، ولأحبها ، ولخضع لسلطانها . وراح سيال الفكر ينتقل به من حال إلى حال ، ونشبت معركة بينه وبين نفسه ، انجلت عن تزعزع إيمانه والتشكك فى عقيدته .

وذهب بلال إلى منازل بنى جمح ، ووقف على قيد خطوات من أمية بن خلف وقبيلته ، ينتظر كلمة شكر على ما عاد به من أرباح وما صادفه من نجاح فى رحلته ، ولكن القوم شغلوا عنه بتوزيع ما جاءهم به من الشام ، ولم تنفرج شفة من الشفاه بكلمة حلوة تنسيه بعض ما كابده فى رحلته من نصب ، أو تكافئه على بعض ما بذله من جهد واجتهاد ، فأحس خيبة أمل مريرة ، فطأطأ بصره وانصرف حزينا كئيبا ، واعتكف فى مكان منعزل يفكر فى حاله ، فأحس ضيقا وتبرما بحياة الاستعباد وتمنى لو أنه كان حرا يفعل ما يريده لا ما لا يريده مولاه ، ويذهب حيثما شاء لا أن يبقى مقيما إلى أن يأمره بالظعن سواه . وأطلق عنان نفسه للأحزان ، فجسمت له الأوهام شقاءه ، ورأى مستقبله أظلم من حلكة الليل ، فغمغم فى يأس : « كتب علىّ أن أعيش عبدا وأموت عبدا ، لا أرى إلا بعيونهم ،

ولا أسمع إلا بآذانهم ، ولا أنطق إلا بأفواههم ، ولا أعبد إلا آلهتهم » . فهتف به صوت الرضى : « لم هذا التبرم أيها العبد الجحود ؟ لقد ميزك عن عبيده جميعا ، ألبسك مما يلبس ، وأطعمك مما يأكل ، وأجلسك بين أصفيائه وخلانه . وأتمنك على أمواله وتجارته ، وأحبك شباب القبيلة حبهم لأنفسهم ، فأصبحت بلالا المفضل ، بلالا المدلل » . وكادت نفسه تصفو وتطمئن ولكن صاح به صوت الغضب : « يا للعبد الغبى ، كاد يصدق أوهامه ، ويعتقد إنه سيد لا مسود ، لا فرق بينه وبين أمية إلا لفظا ، إنك أيها الواهم تحفة تقتنى للتفاخر بها ، وتكرم ويعتنى بها ما دامت سليمة ، حافظة لرونقها وقيمتها ، فإذا ما تكسرت هانت وصارت نسيا منسيا ، إنه ما قربك إليه ولا أجلسك بين خلانه إلا لجمال صوتك ، فيابؤسا لك إذا ما ذهب هذا الصوت ، ويا للشقاء الذى ينتظرك إذا ما بلغك الكبر . ستصبح عبدا منبوذا كبقية العبيد المنبوذين ، فلا ثياب جيدة ، ولا طعام حسن ، ولا جلوس بين السادة . وسيزول عنك الشباب ، ولن تخرج لتجارة أو بيع ، فلا يخرج للتجارة إلا الشباب الجلد » وأطرق بلال يفكر ووقع فى نفسه حزن ثقيل . وراح فكره يطوف به عوالم من البؤس والشقاء ، وقطع عليه تفكيره أصوات

الشباب المقتربة ، فرفع رأسه فرآهم يدرجون نحوه ، ولما لحوه تصايحوا :

— غننا يا بلال واطربنا بحلو نغماتك ، فقد حرمنا عذب صوتك أمدا خلناه دهرا ، غننا يا بلال صوتا ، غننا .

لا . ما كان لبلال أن يعتذر ، أوما يستطيع أن يرفض ، فمتى كان للعبد أن يعتذر أو يرفض ، وما كان له إلا أن يلبى نداء سادته ولو ضاق بما يطلبون . فليغن ولو كان متوعك المزاج ، فليغن ليطربهم وليدخل عليهم السرور وإن كان هو فى حاجة إلى من يواسيه ويخفف عنه بعض أشجانه وأحزانه .

وغنى بلال فأسمعهم ذوب نفسه ، واستحالت أحزانه أنغاما فياضة بالعواطف ، جياشة بالإحساسات ، هزت مشاعرهم ، واستمر يرسل النغم الشجى ، ولم يتركهم إلا وهم سكارى بخمر ألحانه .

WWW.NAFSEISLAM.COM

حر وعبد

فى هجعــة الليل والناس نيــام ، فتحت دار من دور بنى تيم ، وخرج رجل خفيف العارضــين نحيف الجسم ، مسترخ إزاره على حقويه ، دقيق الساقين ، خفيف اللحم فى سائر جسمه . وأغلق الباب خلفه فى هدوء ، وسقط نور القمر الباهت على وجهه ، فكان وجها أبيض معروقا ، ناتىء الجبهــة ، غائر العينين . وانطلق الرجــل وهو خائف فى مشيته ، يبدو عليــه الحذر فى لفتته ، حتى بلغ حى بنى جمح ، فانتقل إلى دار أمية بن خلف . ودار حولها حتى بلغ كوة تطل على حجرة العبيد ، فاقترب من الكوة وهو يتلفت حوله ، وهتف بصوت خافت :

ـــ بلال .. بلال .

وأحس برعدة خفيفة تهز جسمه هزا ، والاضــطراب يسيطر عليه ، وسأل نفسه ما يفعل وما يقول إذا ما فاجأه أحــد فى هذا الموقف المريب الذى يضفى عليــه الليــل شكوكا ؟ فلم يهتد إلى ما يفعــل ولا إلى ما يقول ، فهم بالعــودة من حيث أتى ، ولكن رغبــة الإفضــاء إلى بلال بمكنون سره كانت أقوى من رهبتــه ، فأقنع نفسه بالهتاف

مرة أخرى قبل أن يعود ، وارتفع صوته بالهتاف :

— بلال .. بلال .

ووقف ينتظــر فى قلق ، ثم بلغ مســمعيه صرير باب فأسرع نحوه على حــذر ، ولمح بلالا يتلفت باحثــا عن مصدر الصوت فهمس :

— بلال ؟.

فدرج بلال نحو الشبح الذى لمحه منتصبا فى جوف الظلام ، ولما صار أمامه وجها لوجه تطلع إليه وغمغم :

— من ؟ أبو بكر ؟ وما جاء بك الساعة ؟.

— نبأ هام .

— أوما كان من المســتطاع إرجاؤه إلى الغد بدل أن تجشم نفسك هذا التعب ؟.

— لا يا بلال فما كنت بمستطيع أن أفضى به إليــك تحت سمع سيدك وبصره ، وما أحب أن يصل إلى سمع من يشى بك عند مولاك .

— وما هذا النبأ الهام ؟.

— ظهر نبى هذه الأمة !

— نبى هذه الأمة ؟.

— أجل يا بلال .

— ومن هو ؟.

— محمد بن عبد الله .

— وكيف علمت ؟.

— سرى همس فى مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يدعو سرا إلى توحيد إله واحد ، فاتجهت إليه وقلت له : « يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ » فقال « وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟ » قلت له : « بلغنى أنك تدعو لتوحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله » فقال : « نعم يا أبا بكر ؛ إن ربى عز وجل جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعا » فقلت له : « والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمتك ، وحسن فعالك . مد يدك فأنا أبايعك » . فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فبايعته .

— أصدقته سريعا ؟.

— أجل يا بلال .

— قد يبتغى من وراء ذلك جاها أو مالا .

— لا يا بلال ، إنى أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، وأنه لا يبغى من وراء ذلك جاها ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا ، وله من نسبه فى قريش مكان الذروة والسنام .

— إلام يدعو ؟.

— يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار

الصماء ، إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته يا بلال لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ، وتخلى الطريق بين العبد وربه يدخل إليه بغير واسطة ، ويقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته يا بلال لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

فأطرق بلال يفكر ، وراح أبو بكر يتفرس فى وجهه لعله يستشف أثر مقالته فى نفسه ، فساد السكون بينهما هنيهة ، وطال تفكيره ، فخرج أبو بكر من هذا الصمت المسيطر عليهما ، قال :

ــ ما رأيك يا بلال ؟.

ــ إنى يا أبا بكر لا أدرى ما أقول .

ــ لا تدرى ما تقول ؟ خلتك يا بلال ستفرح لظهور هذا الدين فرحى لظهوره ، بل حسبتك يا بلال ستسر به أكثر من سرورى . سوى هذا الدين بينكم وبين ساداتكم وجعلكم أندادا لهم أمام الله ، ثم تقول يا بلال لا أدرى ما أقول ؟ أين دين قريش الذى لا يقبله عقل من هذا الدين القويم ؟ وأين آلهة قريش المتعددة الأسماء المعدومة الأفعال من الإله العظيم الذى يدعو محمد لعبادته ؟ تلك

أحجار صماء وهـذا جل شأنه حي صمد ، واحـد قهار ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير .

— إني يا أبا بكر لا أقارن بين ما جاء به محمد ودين قريش ، فقد تشككت في قدرة الآلهـة جميعا إثر عودتنا من الشام ، ولكن تعلم أنه من الصعب على النفس أن تهجر ما كانت تدين به وتعتنق دينا جديدا بين عشية وضحاها ، وإن كان الدين الجديد أفضل وأعظم .

— قد يكون هـذا القول مقبولا من قرشي يخشى من تسفيه أحلام آبائه وأجداده ، وأما أن يصـدر منك فإنه شيء عجاب . فما آلهة قريش بآلهة آبائك ، فعلام التشبث بها والخوف من تحطيمها ؟.

— فلتحطم جميعا .

— فلم التردد ! قل يا بلال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فصمت بلال قليلا ثم قال بصوت فيه هزة :

— إي والله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فشاع الرضى في نفس أبي بكر ، وانبسـطت أسارير وجهه . وقال لبلال :

— سـأنتظرك في داري غـدا مساء ، وسنذهب إلى محمد لنبايعه .

وسلم أبو بكر وانصرف . ووقف بلال يرقبه حتى غمره الظلام ، فعاد إلى الدار والدين الجديد يملأ نفسه ويملك عليه كل مشاعره . عاد إلى الدار وهو لا يدرى أنه سيعذب فى هذا الدين ويضطهد من أجله ، ويمتحن فيه امتحانا شديدا رهيبا يجعله سيد الممتحنين ، وإمام المعذبين الصابرين .

وقابل بلال محمدا وبايعه ، وفتنه الدين الجديد فأصبح يختلف إلى محمد حينما تغفل أعين الناس ، فى قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، وراح يتعلم تعاليم الدين الجديد ، ويتأدب بآدابه ، وينهل من معينه الذى لا ينضب . وأثرت روح محمد القوية الفتية فيه ، فحولته من عبد خاضع ذليل إلى إنسان كامل له مثل عليا يعمل على تحقيقها ويسير فى طريقها قدما . لا يثنيه تعذيب ولا يحوله وعيد .

خرج بلال من عند محمد قبل أن تدب الحياة فى مكة ، وقبل أن يخرج الناس من دورهم ، واتجه إلى الكعبة ليطوف قبل العودة إلى دار مولاه ، فلما دخل وجد خلوة من البيت فراح يدور على الآلهة يتفرس فيها ويتساءل : كيف كان يعبد هذه الأصنام الصماء من قبل ؟ وكيف كان يتقرب إليها ينتظر منها الخير وهى لا خير فيها ؟ كيف كان

يفرحه رضاها أو يغمه غضبها ، وهي لا تدرى ما الرضا وما الغضب ؟ كيف لم يهتــد من قبل إلى أنها من صــنع إنســان . وأنها أحقر من أن تســمع رجاء أو تجيب دعاء ؟ وقال فى نفسه : « أكانت الدموع تنهمر من عينى عندما كنت أناجي هذه الآلهة ؟! أكنت أرتجف فرقا لما كنت أقف بين يديها ؟! لــكم كنت غبيا ! يا للوهم الخــادع جسَّم الخيال فجعله حقيقة ، وألبس القزم ثوبا فضفاضا فصيره عملاقا رهيبا ، وأضفى على الأحجار ثوبا براقا فجعلها آلهة قادرة مهيبة ؛ يا للوهم الخادع الذى جعل القوم يتنكبون الطريق القويم وهم يوقنون أنهم على الصراط المستقيم ؛ يا للوهم الخادع الذى يسدل على أبصار الناس أحجبــة كثيفة تجعلهم لا يفرقون بين النور والظلام ، وبين الهدى والضلال » . وبلغ صنم هبــل فتطلع إليه وقال : « أنت أيها الإله العاجز ! أين كنت يوم كسرت يدك ؟! ولم تركتها تكسر ؟!، وكيف قبلت كبرياؤك أن يعوضك عبدك الإنسان الضعيف خيرا منهــا يدا من ذهب وهاج ؟ يا ذا اليــدين ولا يد لك ، ما تستطيع أن تفعل لو لطمتك لطمة أو صفعتك صفعة ، أو بصقت فى وجهك ؟ » وبصق بلال فى وجهــه وغمغم : « إنك لا تستحق ما أضيعه معك من وقت أيهــا العاجز . سيأتى اليوم الذى يدك فيه عنقك ولا تجــد من يصنع لك بدلا منه » .

WWW.NAFSEISLAM.COM

وانصرف بلال وهو لا يدرى أن ثم رجلا كان يرقبه ، شاهد ما صنع بإلهه ، فانسل خلفه يعد عليه حركاته ، ويحصى سكناته .

أحد .. أحد

ترك أمية بن خلف داره وكان القلق والاضطراب باديين على وجهه ، وانطلق إلى دار الندوة ليقابل أبا جهل وأبا لهب وأشراف قريش ، ويشاورهم فى أمر محمد ابن عبد الله الذى سفه أحلامهم وأحلام آبائهم ، لعلهم يهتدون إلى ما يقضى على هذه الدعوة التى استفحل خطبها واشتد خطرها .

أقلقت الدعوة الجديدة أمية ، وأقضت مضجعه بعد أن دعاهم محمد إلى داره وعرض عليهم الإسلام ، لا يخشى بطشهم ، ولا يخاف بأسهم ، ولقد زاد من قلق أمية وقوف محمد على الصفا يدعو معشر قريش لدينه الجديد جهارا . لا يحفل بأحد ، ولا يفت فى عضده ما لقيه من إعراض منهم بالأمس ، ومما زاد فى قلق أمية استجابة بعض نفر لمحمد ، ودخولهم فيما يدعو إليه ، وبينما كان أمية فى الطريق لمح صديقه عبد الرحمن بن عوف فناداه :

— يا عبد عمرو .. يا عبد عمرو .

فلم يجبه عبد الرحمن ، واستمر فى طريقه على الرغم من أن صوت أمية قد صك أذنيه ، وارتفع صوت أمية بالنداء ثانية ، فلم يحفل به عبد الرحمن ؛ فأسرع أمية خلفه ، ولما لحق به قال له :

ـ أفسدك محمد علينا ، فتركت دين آبائك ودخلت فيما يدعو إليه ؟ وأدعوك بعبد عمرو فلا تجيب ، أرغبت عن اسم سماكه أبوك ؟

ـ أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

ـ إنى لا أعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف .

ـ يا أبا على ؛ اجعل بينى وبينك ما شئت .

ـ فأنت عبد الإله .

ـ نعم .

وانطلقا يتجاذبان أطراف الحديث ، فكان أمية يعتب على عبد الرحمن تركه دين الآباء والأجداد ، وكان عبد الرحمن يدعوه إلى الدين الجديد . وحاول كل منهما أن يطوى صاحبه فلم يفلح ، وارتفع الجدل بينهما واشتد ، حتى بلغا دار الندوة فاستأذن أمية ودخل .

واكتمل عقد أكابر قريش وأشرافها ، فراح أمية

ابن خلف وأبو جهل يهاجمان محمدا ، ويسخران من دعوته ويسهبان فى خطرها ، باذلين ما فى وسعهما لتأليب القوم عليه ، وإيغار صدورهم ، وما كانا فى حاجة إلى التهجم أو السخرية أو الإسهاب ، فإنهم جميعا لمحمد كارهون ، ومن دعوته يرتجفون ، يعلمون علم اليقين أن فى ظهوره احتجابهم ، وفى ارتفاعه هبوطهم ، وفى انتصاره زوال عزهم وانفلات الزعامات من أيديهم ، فراحوا جميعا يفكرون فيما يفعلون لدرء هذا الخطر الزاحف الذى يهدد بتقويض سلطانهم ، ويزلزل الأرض تحتهم ، وبينما كانوا يديرون قداح الرأى بينهم ، وبينا كان أمية يحرضهم على المسلمين ، ويدعوهم إلى أخذهم بالشدة ، دلف إليه رجل وأسرّ إليه ببضع كلمات ، فتغيرت هيئته ، وانقلبت سحنته ، وتقلص ما بين حاجبيه ، ونظر إلى الرجل والغضب يتطاير من عينيه ، وقال :

— أواثق أنت ؟

— تمام الثقة .

— رأيته يختلف إلى محمد ؟

— رأيته مرارا .

— ما كان هذا ليخطر على قلبى .

— بل رأيت ما هو أدهى من ذلك وأمر .

— وما رأيت ؟

WWW.NAFSEISLAM.COM

ـ لا يستطيع لسانى أن يجرى بما رأيت عيناى ، ليتهما لم تريا شيئا .

ـ قل ما رأيت .

ـ رأيت .. رأيته يبصق فى وجه إلهنا العظيم هبل .

فصاح أمية صيحة ملؤها الغضب وقال :

ـ أفعل ذلك ؟

ـ أجل .

ـ يا للعبد الفاجر .

وأصبح صدر أمية كمرجل يغلى بالمقت والغضب ، وأحس حاجة إلى البطش لينفس عن صدره بعض ما أغمه ، فهم بالقيام ليذهب من فوره إلى ذلك العبد يصب عليه جام غضبه ، ويعذبه عذابا ما ذاق مرارته أحد ، والتفت إليه أبو جهل ، فقرأ فى وجهه ما يعتلج فى صدره ، وما تضيق به نفسه فقال له :

ـ خيرا يا أبا على ؟

ـ بل شرا مستطيرا .

ـ ما هنالك ؟

ـ عبدى بلال .

ـ ما به ؟

ـ كفر باللات والعزى ودخل فيما يدعو إليه محمد .

WWW.NAFSEISLAM.COM

فظهر الغضب على وجه أبى جهـل ، وأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— وعلام عولت ، إنها لفتنة كبرى .

— الويل للعبد إن صدق ما بلغنى عنه .

— بل الويل لنا إن تركنا محمـدا يبعث دعواه هنـا وهنالك يفتن الضـعفاء والعبيد ، ويجمع حوله العصـاة الكافرين بآلهـة الآباء والأجداد ، لقـد انسابت دعوته فى غفلة منا ، ولكنا أفقنا قبل أن يبلغ مأربه ، فما أمامنا إلا أن نعلنهـا حربا مذكارا عليـه وعلى أعوانه لا هوادة فيهـا ولا لين ، اذهب يا أمية إلى عبدك الحقير هذا وأدبه ، ونكل به نكالا شـديدا ليكون عبرة لأولئـك الأذلاء الذين توسوس لهم نفوسهم الخبيثة الخروج على ديننا ، اذهب يا أمية وليكن عذابك شديدا ، ونكالك رهيبا تقشعر من هوله أبدان الصـابئين ، اذهب يا أميـة ولا تأخذك فيه رأفة ، وانتزع من قلبـك الرحمة ، فما استحق أمثال هؤلاء الكافرين رحمة أو شفقة ، اذهب يا أمية ، اذهب . أما أنا فلن يهدأ لى بال حتى أكتم أنفاس هذه الدعوة فى مهدها ، ولن تقر لى عين حتى أعيد إلى آلهتنا هيبتها التى نال منها محمد وشرذمته . أما أنت يا محمد فسأناصبـك العداء جهارا ، ولن تكون قرابتك منى شفيعة لك عندى ، مستدرة العطف عليك والشفقة لك ، بل سيتحجر قلبى ،

ولأذيقنك من العذاب ألوانا ، فقد فرقت بين الأب وبنيه ، والأخ وأخيه ، وجئتنا بعار ما جاء به أحد قومه من قبل .

ولم يطق أمية البقاء فى مجلسه أكثر من ذلك ، فانتقل إلى داره وسورة الغضب تسيطر عليه ، وصوت أبى جهل يرن فى أذنيه . وقصد حجرة بلال ووقف على بابها يسترق السمع ، فقرع أذنيه صوت بلال وهو يترنم بصوت عـذب خفيض ، كله حلاوة وكله خشوع . وأرهف أذنيه فسمع كلاما ما سمع مثله من قبل قط ، فما هو بالشعر وما هـو بالسجع . فغمغم : « هذا ما سحر العبد . هذا قرآن محمد ولا ريب . برح الخفاء وبان المســتور ، كفر بلال باللات والعزى وتبع هواه » . وهنا ثار بركان الغضب فى صدره ، فدفع الباب بشدة ، واندفع كالعاصفة إلى داخل الغرفة ، فألفى بلال نفسه أمام سيده ، فتطلع إليه فأنكره ، وعرف الغضب فى وجهه فتبين أن أمره قد افتضح ، فلم يجزع ، ولم يرتجف بل حلت السكينة فى قلبه ، وانتظر ما ينزل به من بلاء فى هدوء .

ـــ ما كنت تقرأ ؟

ـــ كلام الله .

ـــ أى إله ؟ ، ومتى تكلم الله ؟

ـــ أنزل على عبده الكتاب والحكمة .

ـــ كفى هراء !

ـــ إنه الحق وربى .

— ومن ربك هذا ؟

— رب السماوات والأرض وما بينهما سبحانه .

— كف أيها العبد القذر ، وإلا كتمت أنفاسك .

فاستطرد بلال ولم يحفل به :

— خالق كل شيء ، القادر على كل شيء .

— يا صابيء ، أكفرت بآلهتنا واتبعت رجلا مسحورا ؟

— ما كفرت ، بل هدانى الله إلى الصراط المستقيم .

فثارت ثائرة أمية ، ولم يطق صبرا ، فلطم بلالا لطمة شديدة وصاح به :

— ومتى كان للعبد أن يتبع هواه أو يتخذ له إلها غير آلهة سادته ؟ إنك عبدى ، ملك يمينى ، أفعل بك ما أريد ، وتفعل ما أريد ، وتعتنق ما أعتنق ، وتدين بما أدين .

— على رسلك يا مولاى ؛ إنى أعلم علم اليقين أنى عبدك ، وأنى ملك يمينك تفعل بى ما تريد ، وأفعل ما تريد ، ولكن اعلم يا مولاى أن جسدى فقط هو ما تملك ، وما تستطيع أن تملك ؛ أما عقلى ، أما وجدانى ، أما ما يكنه صدرى ، أما حبى وبغضى ، فهذا جميعه لى ، لى وحدى ، لا يستطيع كائن من كان أن يملكه أو يتحكم فيه ، ولا تستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من الحول والطول أن ترغمنى على أن أعتقد ما لا أعتقد ، أو أدين بما لا أدين به قسرا . ولن تستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من

الحول والطول أن تحولنى عمـا اعتنقت ، أو ترغمنى على ترك دين الله الذى هـدانى إليه ، فلا تحاولن يا سـيدى عبثا . ولا تركبن شططا .

ــ عـد يا بلال إلى رشدك ، وإلا استللت روحـك الخبيثة التى أفسدها محمد من بين جنبيك .

ــ ما أفسدها محمد ، بل هداها سواء السبيل .

ــ أتسترسل فى غيك ، وتعصى أوامرى ؟

ــ إن عصيت أوامرك فقد أطعت الله .

ــ أتكهنت يا بن السوداء ؟ واللات والعزى لأعذبنك حتى تترك هذا الدين .

ــ والله لو قطعتنى إربا إربا ، وأزهقت روحى نفسـا نفسا ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته .

ــ ما كان هذا ــ يا لئيم الطبع ــ طبعك . لقـد كنت أطوع لى من بنانى ، حتى إذا ما أطعمتك جيـد الطعام ، وألبسـتك غالى الثياب ، جئت اليوم تعصينى ، ولـكن لا غرابة فى ذلك فأنت عبد ابن عبد .

ــ لا تمن علىّ إطعامى وكسوتى ، فما أطعمتنى لله ، وما كسـوتنى لله ، بل فعلت ذلك لمـا أقوم لك به مـن خدمات جليلات ، ولما أدخله على أصـفيائك وندمائك من سرور . وقد أصبحت يا مولاى لا أحفل بطعامك الجيـد

ولا بثيابك الغالية . فما عليّ إن أنا جعت يوما وشبعت يوما في هذه الدنيا الفانية ؛ إن كل ما أبغي هو رضا الله ربي حتى أفوز بجنات عرضها السماوات والأرض .

— أهذا ما علمك محمد ؟ سنرى يا بلال حتام تثبت على هذا .

— حتى تصعد روحي إلى خالقها .

— سنرى ..

ودرج إلى الباب كليث هائج ، وكان الغضب والحنق ينعكسان على وجهه ، وأطل برأسه من الباب وصاح على الخدم ، فخفوا سراعا ووقفوا أمامه خاشعين ينتظرون أوامره ليصدعوا بها ، فصاح فيهم وهو يشير إلى بلال :

— انضوا عن هذا الكافر ثيابه ، وألبسوه الأسمال البالية ، وقيدوه ليعرف قدره .

فاتجه الخدم صوب بلال لإنفاذ ما أمروا به ، فالتفت إلى أمية وقال بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان وثبات :

— مهلا ! ها هي ذي ثيابكم الغالية ، فلا حاجة لي فيها .

وخلع ثيابه ولبس ما قدم إليه من أسمال ، ثم قدم إليهم يديه فقيدوهما ، ووقف ينتظر ما يحل به من عذاب وما ينزل بساحته من اضطهاد بجنان ثابت ، ونفس راضية مرضية .

ولمح أمية ثباته واطمئنانه فازداد كمده ، وتضاعف غيظه ،

وعض على أنيابه حتى سمع صريرها ، وتقدم منه والغضب يطفح على وجهه ، ووضع فى عنقه حبلا من مسد ، ونظر إليه نظرة هائلة أودعها كل ما يعتلج فى صـــدره من الحنق والمقت ، ولو أنه صوبها إلى غير بلال لارتعدت فرائصـــه فرقاً ، ولكن بلال وقف ثابتا لا يتزعزع ، وغمغم أمية :

— سيكون عذابى رهيبا .. وسترى يا بلال ..

ثم جذب الحبل جذبة شـــديدة آلمت بلالا ، ولكنه لم ينبس ، وســـار أمية وهو خلفه صامت ، ونادى صـــبيان القبيلة ودفع به إليهم وأمرهم أن يعـــدوا به بين أخشـــبى مكة ، ليكون عبرة للصابئين الكافرين باللات والعزى .

وخرج الصبيان بفريستهم يتصـــايحون ، وراح الناس يتســـاءلون عن النبأ ، فكان الجـــواب : إنه كافر باللات ، ناكر للعـــزى ، صابىء عن دين القوم . فكانوا يرشـــقونه بأقذع السباب ، وينعتونه بأقبـــح النعوت ، وهو ساكن ثابت ، لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إليهم ، كأن الأمر لا يعنيه ؛ ولمـــا اقترب الموكب من الكعبة ، ارتفع تصـــايح الناس ، فراح بلال يردد :

— أحد .. أحد .

واســـتمر الموكب فى طوافه ، والصـــبيان فى هتافهـــم وصياحهم . وبلال فى ترديد شعاره : « أحد .. أحد » حتى تصرم النهار ، ونال التعب والكلال من الصبيان ، فعادوا به

WWW.NAFSEISLAM.COM

إلى الدار ، وهو أصرم فى الحق مما كان ، موطدا العـزم على أن يتحمل صـنوف العـذاب ، فقد هان كل شيء فى عينيه بعد أن رشـد وذاق حلاوة الإيمان . وبلغ أميـة عودة بلال بعد انقضاء نهار مضن شديد ،وجهت إليه فيـه شتى الإهانات ، وتجرع فيه كأس العذاب ، فاتجه إليـه وهو يرجو أن يكون ما صادفه فى يومه من بلاء . وما ناله من عناء ، رادعا له وزاجرا . ولكنه عندما دخل عليـه لم يقف له بلال ولم يحفل به ، فتغاضى أمية عن ذلك . وأقبل عليه وقال له فى صوت فيه لين :

ــ إيه يا بلال ، عسى أن تكون قد ثبت إلى رشدك .

ــ أحد .. أحد .

ــ لا توغر صدرى يا بلال عليك أكثر من ذلك ، وإلا نكلت بك نكالا شديدا .

ــ أحد .. أحد .

ــ لا تتمـادى يا بلال ، واعلم أن روحـك عنـدى أصبحت لا تساوى شروى نقير .

ــ أحد .. أحد .

ــ يا بن السـوداء كف عن ذلك ، وإلا قتلتك ككلب قذر .

ــ أحد .. أحد .

ــ واللات والعزى لأقتلنك .

وهجم أمية عليــه وقبض على عنقه بيــديه ، وراح يضغط عليه برهة ، ثم تركه فجأة وقال له :

— لا ، لو قتلتك لأرحتك من عذابي .. لا ، لن أنيلك هذه الراحة أبدا .

ودفعه دفعة شديدة فتدحرج على الأرض ، واتجه أمية نحو الباب ، فصاح بلال قبل أن يخرج :

— أحد .. أحد . والله لو أعلم كلمــة هي أغيظ لكم منها لقلتها .

***

وكرت الأيام ، وترادف العذاب على بلال وتتابع ، وهو صــامد ثابت لا تلين له قنــاة ، ولا ينال أميــة مبتغاه . واستعان بأبي جهل في تعذيبه فآبا بالخيبة والفشل ، فزاد غضبهما على الأيام . وفي يوم جلسا يتشاوران فيما يفعلانه بهذا العبد الذي أذلهما ونال منهما ، قال أمية لصاحبه وهو يحاوره :

— أذقناه صــنوف العذاب فما تزعــزع ولا حاد عن طريقه ، ولا نطق بما نشتهي ، فما أمامنا إلا قتله والاستراحة منه ومن عناده .

— كيف تشير بقتله يا أمية ؟ ألا تعلم أن قتله دليــل عجزنا ، وآية ضعفنا ؟

— وما تفعل به إذن ؟ ضاق صبري عن احتماله .

— نستمر فى تعذيبه .

— حتام ؟

— حتى يكفر بمحمد ورب محمد ..

— إنا يا أبا جهل نتعلق بخيوط واهية ، ما رأيت أحدا من قبل يصبر على العذاب صبر ابن السوداء هذا .

— لا تقنط ، فلن يحتمل عذاب اليوم .

— وما تفعل به ؟

— يومنا قائظ شديد الحرارة ، تلفح شمسه الوجوه ، فلألبسنه درعا من حديد ، ولأقيدنه فى بطحاء مكة تحت نار الشمس المتقدة ، فلن يستطيع معها صبرا .

— أتظن ذلك ؟

— بل إن صوت توسله ليرن فى أذنى ، يطلب منا العفو والغفران .

— افعل به ما تشاء .

وجىء ببلال مقيدا ، وأضجعوه على الرمال ، وتركوه للشمس وانصرفوا ، فراحت الشمس تقذفه بسهامها فيتلوى صابرا ، وجعلت الرياح تزجى إليه غبارا ساخنا ملتهبا ، واستمر لذع الشمس له ، وتفصد العرق منه ، وتسرب إلى عينيه ، فزاده ذلك بلاء على بلاء ، ولكنه ظل صابرا لا يجزع ولا يقنط ، ينتظر الفرج من الله بقلب عامر بالإيمان ، ممتلىء باليقين .

(بلال مؤذن الرسول)

وأقبـل أمية وأبو جهل وخلفهما أتباعهما ليروا ما نزل بفريستهم من بلاء . وتقدم أبو جهل من بلال ممنيا النفس بسماع ضراعته وتوسلاته واستغفاره ، وما إن رأى بلال أبا جهـل وأمية وأذنابهما حتى تيقظت نفسه ، وشحذت عزيمته وازدادت مضاء ، ومال أبو جهل عليه ، وقال :

ــ هيه يا بلال .

فهتف بلال : « أحد .. أحد » .

وما صـك ذلك أذن أبي جهـل حتى اربد وجهـه ، وضاق صدره ، ورفسه رفسة شديدة وغمغم : « أما زلت على غيك يا بن السوداء ؟ » وتلفت حوله فرأى صـخرة عظيمة ، فأمر القوم بوضعها فوق صـدر بلال . ووضعت الصخرة ، فازداد عليه الكرب . وازداد مع ذلك صـلابة وعنادا ، وراح يهمس بصوت خفيض :

ــ أحد .. أحد .

وارتسم الألم على وجهه ، وبان عليه الجهـد ، وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وجعـل يئن ويتوجع ، وأميـة وأبو جهل وأتباعه يرقبون ما هو فيه من بلاء بقلوب قدت من الصـخر . وكانوا كلما ازداد كربه ، ازداد فرحهـم ؛ يحسـبون أن قوة احتماله سـتنهار عما قريب ، وأنهـم سيفوزون منه بما يريدون . وتحركت شـفتاه ، فأرهفوا السمع جميعا ، ليسمعوا منه ما يحبون ، ليسمعوا منه سب

محمد وإله محمد ، كما سمعوا ذلك من إخوانه المسلمين المعذبين قبله ، ولكن تحركت شفتاه بما يكرهون :

ـ أحد .. أحد .. إن يقتلونى فلم آكن لأشرك بالرحمن من خشية القتل ، فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

أبعد هذا لا يكفر بمحمد وإله محمد ؟!، أبعد كل هذا العذاب يناجى ربه ويطلب عونه ، لقد انقطع آخر خيط للأمل فى أن ينالوا منه بعض ما يحبون ، فما هم بمستطيعين أن يتركوه بعد هذا ليكون دليلا على عجزهم وفشلهم ؛ ونظر أمية إلى أبى جهل وقال :

ـ ألم أقل لك ألا فائدة من تعذيبه فهو عبدٌ كثير العناد لا يلين ، فلم يبقَ أمامنا إلا قتله .

فأطرق أبو جهل يفكر ولم يحر جوابا .

***

وخرج أبو بكر من عند النبى فى الهجيرة وأغذ فى السير ، وراحت الشمس الحامية تلفح وجهه ، وتفصد العرق منه غزيرا ، وضاقت أنفاسه من شدة الحر ، ولكنه لم يحفل بذلك كله ، فقد كانت نفسه فى شغل عن كل ذلك ، كانت فكرة تعذيب بلال واحتمال قتله تسيطر على كل حواسه فتشغله عما عداها . ثم أشرف على ساحة التعذيب ، فرأى أناسا يلتفون حول صخرة عاتية يصيحون ويصخبون ،

فأسرع نحوهم ، ولما بلغهم ، رأى بلالا تحت الصخرة يئن ويتوجع ، ويغمغم بين آونة وأخرى :

ـ أحد .. أحد .

فكادت الأرض تميد تحت قدميه ، وجرى الدم حارا فى عروقه ، وامتلأ صدره بإحساسات شتى متباينة ، فبقدر ما فاض بالشفقة على بلال والرثاء له ، بقدر ما فاض بالحنق على أمية وأبى جهل ، وبالمقت لهما . ولم يستطع أن يتمالك نفسه ، أو يتحكم فى عواطفه ، فأسرع إلى أمية وصاح به ، غير هياب من تلك الجموع الثائرة المتعطشة إلى تعذيب المسلمين والتنكيل بهم :

ـ حتام تعذب هذا العبد ؟

ـ وما شأنك أنت ؟ إنه عبدى ، أعذبه متى أشاء وأطلقه أنى أشاء .

ـ ألا تتقى الله فيه ؟

ـ كفى يا بن أبى قحافة ، إنه يعذب بسببك ، فما أفسده سواك .

ـ ما أفسدته ، بل هديته سواء السبيل .

ـ كفى ودعنا .

ـ لا أدعكم حتى تطلقوه .

ـ لن نطلقه حتى يعود فى ديننا أو يموت .

— لن يعود فى دينكم أبدا ، فلن يبيع الهدى بالضلالة . ولن يعود إلى الظلام بعد أن رأى النور .

— أجئت تلتمس الصفح عنه ، أم جئت تسبنا ، وتعيب ديننا فى وجوهنا ؟

— بل لأقول لك إنه سيبقى على دينه حتى يموت ، وفى موته فقد لثمنه .

— أأبقيه وأطعمه وأكسوه ليسب آلهتنا ، ويفتن صغارنا ؟

— إنى على استعداد لشرائه .

— أتشتريه ؟

— أجل .

— كم تدفع فيه ؟

— ما تطلبون .

— خمس أواق ذهبا .

ودفع أبو بكر ما طلبوه ، فالتفت أمية إليه وقال :

— لو أبيت إلا أوقية لأخذته .

— لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته .

وأسرع أبو بكر نحو الصخرة ، وراح يزيحها عن صدر بلال ، وعاونه بعض الواقفين . ونهض بلال ووضع يده فى يد أبى بكر وانطلقا ، وفى الطريق التفت بلال إلى أبى بكر وقال :

WWW.NAFSEISLAM.COM

ــ إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله .

ثم بلغا منزل الرسول فاستأذنا ودخلا ، ولما رأى النبى بلالا بان السرور على وجهه ، والتفت إلى أبى بكر وقال :

ــ الشركة يا أبا بكر .

ــ لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

أغنياء وفقراء

أطلق سراح بلال ، وتصرمت أيام استرقاقه ، وما انقضت أيام اضطهاده وتعذيبه ، فقد راحت قريش تطارد المسلمين ، وتفتن في إيقاع الأذى بهم . وزال ما كان فيه من نعيم عند أمية ، وأقبل التشرد والجوع بعد الإقامة والشبع ، وأقبل شظف العيش بعد الرفاهية والرغد ، فما نال هذا التبدل من نفس بلال ، وما التفت إليه فقد كان صدره يعتلج بإحساسات أخرى أنسته نفسه وماضيه ، كان يعتلج بالأمل الذى نفخه رسول الله فيه ، وأضحى له هدفا يسعى إليه ، لا يثنيه عن بلوغه اضطهاد أو تعذيب أو تشريد أو جوع . تبدل العبد بلال بعد اصطحابه النبى إلى إنسان آخر له مثل عليا يعمل جادا للوصول إليها ، له غرض فى الحياة يعيش لأجله ، ويعمل من أجله ، ووطد

العزم على أن يشاطره آلامه وآماله حتى يظهر الله دينه ، وحتى يأتيهم بنصره الذى وعدهم .

ومرت الأيام ولم يفتر اضطهاد قريش للمسلمين ، بل تضاعف لما تيقنوا أن من هاجر منهم إلى الحبشة فرارا بدينه عاش فى كنف النجاشى آمنا مطمئنا ، واشتد اضطهادهم وتزايد إثر إياب وفدهم من عند النجاشى يجر أذيال الخيبة والفشل .

اجتمع رؤساء قريش ليتشاوروا فيما يفعلون بمحمد وصحبه ، وليفكروا فى استعمال سلاح آخر غير سلاح الاضطهاد الذى فل ، سلاح أكثر مضاء ، وأعمق أثرا . والتفت أبو جهل إلى الحاضرين وقال :

ـ والله ما بلغنا من ابن عبد المطلب وأصحابه شيئا ، نفتنهم فى أنفسهم وأموالهم ، فلا تزداد دعوتهم إلا انتشارا ، ولا يزداد أمرهم إلا ظهورا .

إن أتباع محمد ليكثرون بين أظهرنا ، وهذا دينهم قد خرج من مكة فاستقر فى أرض الحبشة ، وجد أصحاب محمد هناك عزة ومنعة وجوارا .

وراحوا جميعا يديرون قداح الرأى بينهم ، وأخيرا قر رأيهم على ألا يبيعوا للمسلمين ولا يبتاعوا منهم ، فيقضى ذلك عليهم ، ويقطع دابرهم . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة .

حوصر المسلمون فى شعب أبى طالب ، وكان بلال بينهم ، وتركوا للجوع يستبد بهم ، وبقى بلال ملازما للنبى يشاطره ما يقاسيه من الشدة والجوع .

ومرت الأيام على المسلمين وئيدة ، ونال الجوع منهم أى منال . وخوى بطن بلال فخارت قواه ، وزاغت عيناه ، وتفككت أوصاله ، وراح يتلوى من ألم الجوع ، ولكن كل هذا لم ينل منه أكثر مما نال منه الاضطهاد والتعذيب ، فما استطاع الجوع أن يضعف نفسه أو يزعزع عقيدته أو يمس إيمانه ، بل على النقيض من ذلك زاد الألم نفسه صفاء . وهل يصقل النفوس مثل الألم ؟ فما الألم للنفوس إلا النار للمعادن يصهرها ويخلصها من أدرانها ، ويخلفها نقية صافية مجلوة .

وارتفع صياح أطفال المسلمين ، ففرح بعض من قدت قلوبهم من الصخر من قريش لهذا البلاء النازل بالمحصورين ، ولانت بعض القلوب ورقت ، فما أطفال المسلمين إلا أطفالهم ، وما هم إلا بعضهم وجزء من فلذات أكبادهم ، وإن خرج آباؤهم عن دين القوم وعما ألفوه ؛ فعمل أصحاب القلوب الرقيقة جاهدين على نقض هذه الصحيفة الجائرة ، فنقضت ومزقت ، وخرج المسلمون من الشعب أكثر عزما ، وأقوى نفسا وأعظم أملا ؛ خرج

المسلمون وقد عقدوا العزم على أن يعملوا على إظهار دينهم أو يهلكوا دونه .

وأقبلت الوفود لحج البيت المقدس ، فخرج النبى مع بلال وصهيب وعمار بن ياسر وخباب ، وبعض نفر من الضعفاء ، يعرض دينه الجديد على الوفود ، ويدعوهم للدخول فيه ، وحاولت قريش أن تحجز الناس عنه ، وأن تمنعهم من أن يستمعوا إليه ، وتحذرهم منه ، فكان فى محاولة المنع والتحذير دعاية له أية دعاية ، فما أحسوا أن كل ممنوع مرغوب ، وما دروا أن النفس تواقة إلى حب الاستطلاع ، فأقبل الناس عليه يستمعون إليه ، فذاع أمره وانتشر ، وزاد خطره ، وسمع العرب جميعا بأمر محمد ، وبدعوة التوحيد التى يرفع محمد بن عبد الله علمها ، فأقبلت الوفود يتساءلون عن النبأ العظيم .

وخرج الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة الفزارى ، وهما ممن أسلم من أشراف مضر ، وما كانا يفقهان ما فى الدين الجديد من تشريع حكيم ، وما كانا فى حاجة إلى أن يفقها ما فيه ، فما اعتنقاه إلا ليقال إنهما خرجا عما ألفه القوم ،وثارا على ما يعتنقون ، وفى ذلك ذيوع لصيتهما ، وانتشار لأمرهما ، وكان هذا كل ما يبغيان من دنياهما وأخراهما .

خرجا يمنيان النفس بالجلوس مع النبى ، فإذا ما أقبلت عليه الوفود ورآهما الناس ، عرفوا فضلهما ، وفى هـذا إشـباع لرغبة الظهور فيهما . ولكن لما اقتربا من مجلسه وجدا بلالا وصهيبا وعمارا وخبابا وبعض ناس من الضعفاء جالسـين معه ، فأحسا انقباضا وضـيقا وتبرما ، فما كانا يبغيان هـذا ، وما كانا يرضيان عن أن يشـاركهما أمثال هؤلاء الأعبـد مجلس النبى ، فما لهذا جاءا ، وما لهـذا أسلما . والتفت الأقرع إلى عيينة وقال :

— والله لا أدرى ما يحبب الرسول فى هؤلاء الأعبد ؟

— إنهم أصفياؤه .

— أما وجد خيرا منهم ؟

— إنهم لا يفارقونه أبدا : فبلال يسير معه أينما سار ، ويتبعه حيثما ذهب .

— أتشاركهم مجلسهم ؟.

— لا .

— علام عولت إذن ؟.

— سأطلب منه أن يقيمهم عنه إذا نحن جئنا .

— أيقبل ؟

— ولم لا يقبل ؟.

وانطلقا حتى إذا ما جاءا النبى مال الأقرع عليه وقال :

— نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب

فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هـذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنـك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

فأطرق النبى قليلا ثم رفع رأسه وقال :

ــ نعم .

وأمر النبى بلالا وصـحبه بالانصراف ، فانطلقـوا ، وانطلق بلال وقد طافت به سـحابة من الحزن ، وغمغم : « أيطردنا النبى من أجل هؤلاء السادة ؟ » . وطأطأ بصره ، وهم بأن يسترسل فى ألمه ، ولكن صاحت به نفسه : « صه يا بلال ، كيف يخطـر على قلبك هـذا ؟ ما طردكم النبى وما تخلى عنكم ، إنه ما فعل ذلك إلا ليرضى غرور هؤلاء السادة مرة ، وقد أرضاكم مرارا ، وشملكم بعطفه وبره وكرمه » .

وانطلق بلال ، وجلس الأقرع وعيينة مع النبى ، وأحسا زهو وفخرا ، وشاءا أن يستوثقا من دوام هـذا التفضيل فقالا :

ــ اكتب لنا كتابا .

فدعا رسول الله عليا ليكتب لهما كتابا ، ودعا بصحيفة ولمـا تناولها تغيرت هيئته ، وتفصد العرق من جبينه وبان عليه الجهد ، فعلم على أنه يوحى إليه فصمت ولاذ الجميع بالسكوت ، حتى إذا ما عاد النبى إلى حالته الأولى رمى

WWW.NAFSEISLAM.COM

الصحيفة من يده ورفض أن يكتب ما يطلبان ، وطلب دعوة بلال وأصحابه على الفور ، وانتظر أوبتهم بصبر نافد ، ولما أقبلوا بش لهم الرسول وقال :

ـ سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة .

وجلسوا إليه ، والتفت إليهم الرسول ورتل ما أنزل عليه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » . فشاع السرور في نفس بلال ، وفاضت روحه رضا واطمئنانا ، ودنا من النبي والبشر ظاهر عليه ، حتى أصبحت ركبته فوق ركبة النبي الحبيب .

جلس النبي مع بلال وأصحابه ما شاء الله أن يجلس ، ثم تركهم وقام ، وكان النبي سجابة يومه معهم ، وإذا ما أراد أن يقوم تركهم . فأنزل الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . فأصبح رسول الله يصبر أبدا حتى يقوموا ، وكان بلال وأصحابه يعلمون ذلك ، فإذا ما بلغت الساعة التي يريد أن يقوم النبي فيها تركوه وانصرفوا ، فيقوم الرسول لقضاء حاجته .

الهجرة

شاع فى مكة خبر وفود نفر من الأوس والخزرج واجتماعهم بالنبى ، وإسلامهم ومبايعتهم له ؛ فاضطرب حبل قريش لذيوع الإسلام فى يثرب ، وزاد حنقهم ، واعتلجت بالحفيظة صدورهم ، فضاعفوا الأذى للمسلمين ؛ ووقعت على بلال ضروب المحن ، وصب عليه ألوان العذاب وهو صابر على الأذى . ورأى النبى ما نال أصحابه من الاضطهاد والتضييق فقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ، ودارا تأمنون بها فهاجروا .

فأطرق بلال يفكر فيما قال الرسول : أيهاجر ويترك مكة التى تنفس أول ما تنفس هواءها ، ودرج أول ما درج على أرضها ، ورتع أول ما رتع فى فضائها ، ونبض قلبه أول ما نبض بالحب لها ؟ إنه يحبها ، تربطه بها ذكريات ، وإن لم تكن جميلة كلها ، طيبة كلها ، فهى ذكريات عزيزة عليه ، تجعلها قطعة من روحه ، وتجعله جزءا منها ، على الرغم مما ناله من عذاب على أرضها وما وقع عليه من اضطهاد بها . وغمغم : « إيه يـ مكة . يا أحب أرض الله

إلينا ، أكتب علينا أن نهجرك ، ونخرج منـك مطرودين مشردين ؟ » .

ونهض وسار مطأطىء البصر ، شارد اللب ، يفكر فى أمر الرسول بالهجرة . واسترسـل فى تفكيره ، ولم يقطع حبل استرساله إلا أصوات بعض الهازئين بالصـابىء ، فرفع رأسه فألفى أمية وأبا جهل وأتباعهما يسخرون منه ، فانطلق مادا بصره أمامه ، ثم أجاله فيما حوله وتمتم : « لم يبق لنا بقاء فيك يا مكة ، فقد أصبحت دار هوان . تنكر لنا فيك يا مكة كل شيء ، تنكر الأهل والخلان . ضقت بنا يامكة ولم نضـق بك ، فما المقـام يا مكة ، أللبلاء والعـذاب ؟ ما تجنيت يا مكة ولا تجنينا ، بل أهلكالذين تجنوا وأغلقوا أعينهم عن النور ، فما من الوداع بد ، فالوداع الوداع حتى يقضى الله أمرا كان مفعـولا » . وراح يضرب فى أحيائهـا وأسواقها يتزود منها بالنظرة الأخيرة ، ودخل البيت يطوف به فأحس بحزن ثقيـل ، وراح يطوف وفى الفؤاد ضريم نار ، ترى أهذا طوافه الأخير بالبيت ؟ أهذا آخر عهده به ؟ أم كتب عليـه أن يراه مرة أخرى ؟ وخرج مخلفـا البيت وراءه ، فأحس غصة فى حلقه ، وكادت تفر دمعة من عينيه ، ولكنه تجلد وانطلق موطـد العزم على الرحيل . وتقابل وعمـار ابن ياسر ، وسعد بن أبى وقاص . فقال لهما :

— لم يبق لنا مقام فى مكة ، وسأهاجر الليلة .

فقال عمار : ألا تنتظر قليلا ؟.

فقال بلال : « ولم الانتظار ، وقد أمرنا رسول الله بالهجرة » ؟

فقال سعد : « خير البر عاجله ، سأخرج معك الليلة يا بلال » .

فقال عمار : « إن خرجتما الليلة صحبتكما » .

واتفقوا هم الثلاثة على الخروج ليلا والناس نيام ، تاركين بلدهم الظالم أهله ، ميممين شطر يثرب ، آملين أن يبدل الله خوفهم أمنا ، وأن يجعل الله لهم فيها مقاما محمودا .

وسجا الليل ، وهجع الكون ، وخرج بلال فى الموعد المضروب قاصدا المكان الموعود ، وسار على حذر يتلفت خلفه ، وسحب راحلته وهو يرجو ألا تحدث صوتا ينبه النوام إليه ، وانطلق يساوره القلق من أن يعثر به أحد فيفتضح أمره ، وينكشف سره ، فيتألب عليه القوم يمنعونه من الخروج . ولكن الليل كان حالك الظلام ، كأنما ارتدى ثوب الحزن لفراقهم ، وما كان لإنسان أن يبين مواقع قدميه ، فاطمأن بلال إلى ذلك ، وردت نفسه إلى هدوئها ، وبلغ المكان المقصود فألفى رفيقيه ينتظرانه . واكتمل عقدهم ،وامتطوا رواحهم ، وانطلقوا صامتين ،

فقد عقد الحزن ألسنتهم ، والتمعت الذكريات برءوسهم ، ذكريات مكة الحبيبة ، ذكريات الطفولة والشباب ، ذكريات الأهل والخلان . لقد خلفوا وراءهم كل شيء يربطهم بماضيهم ، وانطلقوا إلى مستقبل مجهول لا يدورن ما يخبئه لهم من أحداث . وأحس بلال بلوعة لفراق مكة ، ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وانحدرت من عينيه دمعة كفكفها بظهر يده . انطلقوا وما كان يدور بخلدهم أنهم عما قريب سيعودون إلى مكة مرفوعى الرأس ، موفورى الكرامة ، وأن صوت بلال الصداح سينساب فى أجوائها عذبا معلنا انتهاء الوثنية ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

انطلقوا ترفعهم النجاد ، وتحطهم الوهاد ، ويرعاهم الله حتى بلغوا يثرب ، فألفوا ناسا كراما ، يكنون لهم الحب ويفضلونهم على أنفسهم وإن كانت بهم خصاصة ، فاطمأنت نفس بلال ، وأحس راحة وهدوءا . فقد تصرم أوان التعذيب والاضطهاد ، وانقضت أيام الشدة والضيق ، ولاح فى الأفق بصيص من النور ، سينتشر وينتشر حتى يغمر العالمين ، ويتألق حتى يخطف سنا ضوئه الأبصار .

ومرت الأيام بطيئة ، وأحس بلال فراغا فى نفسه ، وشوقا إلى النبى . إنه يحن إلى لقائه ، يتحرق شوقا

لسماع صوته الهادىء الحلو ، فما يطيق النأى عنه أكثر من ذلك ، فكيف بالبعد ، وما تركه قط من يوم إسلامه إلى يوم هجرته ؟ متى يقبل النبى حتى ترد نفس بلال إلى طبعها ؟!

وأقبل عمر بن الخطاب ، فأسرع بلال إليه يستفسر منه عن النبى ، وكيف خلفه ؟ ومتى يوافيهم ؟ فأخبره عمر أنه سيكون بين ظهرانيهم عما قريب ، فانصرف بلال وهو يمنى النفس بقرب لقاء الحبيب .

وانتشر فى يثرب خبر خروج النبى من مكة ، فوقع هذا الخبر فى نفس بلال موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، وشاع السرور فى نفسه ، وخرج مع القوم إلى ظاهر المدينة ينتظر طلعة النبى بصبر نافد ، وراح يمد بصره يكشف عن الطريق لعله يلمح النبى فيرد إلى نفسه الصادئة لرؤياه طمأنينتها . ولكن النهار قد تصرم وما ظهر فى الأفق أثر لقادم ، فآب إلى داره ، ينتظر انقضاء الليل ليخرج لانتظار الرسول .

ومرت الأيام ولم يقدم ، فخالج القلق بلالا ، وراح يتساءل عن سبب تأخر مقدمه ، فلا يجد جوابا مطمئنا لتساؤله . وفى يوم اشتد حره انتظر مع المنتظرين ، ثم قفل الناس راجعين بعد أن صوبت إليهم الشمس سهامها الحامية وبقى بلال وحده . ولما سفعته الشمس ، وتحرقت منه